

صدي الثورة التحريرية في الشعر الجزائري الحديث

غنية غرابي

قسم اللغة والأدب العربي..كلية الآداب واللغات جامعة محمد بوضياف - المسيلة. الجزائر

بريد المرسل : gherabighania@gmail.com تاريخ الإرسال 25 ديسمبر 2017

الترقيم الدولي: 1969 - ISSN 2335 - ترقيم الإلكتروني 2602-506 X E.ISSN

Résumé :

La révolution de libération est considérée comme un évènement historique remarquable dans l'histoire de la lutte politique et intellectuelle algérienne .

Elle a fouée un grand rôle dans la poésie algérienne moderne ou elle l'a accompagnée depuis son début jusqu'à l'indépendance, dans cette période la poésie révolutionnaire a apparu pour traiter des batailles , rend hommage aux martyrs, renforçant la volonté et exaltant la révolution qui a été la principale du changement, de la refuse de l'humiliation et de l'exlavage, faisant sortir du colonisateur français et récupérant la liberté et la souveraineté nationale .

Les mots clés: La révolution - la libération- la poésie révolutionnaire - la liberté, la souveraineté nationale

المخلص:

تعد الثورة التحريرية حدثا تاريخيا متميزا في تاريخ النضال الجزائري السياسي والفكري كما قامت بدور كبير في الشعر الجزائري الحديث، حيث واكبها وسار معها جنبا إلى جنب منذ انطلاقتها الأولى إلى غاية الاستقلال وخلالها نتج شعراً ثوريا نضاليا أخذ يصور المعارك والبطولات، ويخلد الشهداء، ويقوي العزائم، ويمجد ثورة عظيمة كانت دافعا أساسيا وقويا للتغيير، ورفض حياة الذل والعبودية، والعمل على إخراج المستعمر الفرنسي واسترجاع الحرية والسيادة الوطنية.

الكلمات المفتاحية:

الثورة، التحرير، الشعر الثوري النضالي، الحرية، السيادة الوطنية.

لقد أحدثت مجازر الثامن ماي 1945

هزة عنيفة وجرحا بليغا في نفوس الجزائريين

عامة والشعراء خاصة، وقضى على أي أمل لديهم في الاستقلال لذلك أصبح التوجه نحو مبدأ الثورة شعورا وطنيا عاماً، فالجزائريون أصبحوا لا يرون إلا طريق المواجهة والثورة وإن ذلك هو السبيل الوحيد لتحقيق الحرية والاستقلال.

مفهوم الثورة:

أ- لغة: ورد في "لسان العرب" لابن منظور في تعريفه للثورة ما يلي: "ثار الشيء: ثورا وثورورا، وثورانا، وثور: هاج وثور الغضب: حَدَّثَهُ، والناثر: الغضبان، ويقال للغضبان أهيج ما يكون: قد

ثار ثائره، وفار فائره، إذا غضب، وهاج غضبه، ويقال: انتظر حتى تسكن هذه الثورة وهي: المهادج. (1)

ب- اصطلاحا: والثورة في مفهومها الاصطلاحي هي:

فعل التغيير الشامل، وإذا كان "التمرد حركة لا نتيجة لها في الواقع، واحتجاجا غامضا لا ينطوي على نظام أو مذهب، فالثورة محاولة لتكثيف العمل وفقا لفكرة ابتغاء تشكيل العالم داخل إطار نظري، إنها عملية تغيير جذري وتطهير شامل، تقتل الأشخاص والمبادئ معا". (2)

ومن هذا المفهوم الواسع الدقيق لمصطلح الثورة "المرادف الحديث للمصطلح العربي الإسلامي - الجهاد ذي الأبعاد المتعددة- كانت الثورة الجزائرية تحديا على مستوى الوجود الحضاري، ومقاومة عنيدة شديدة بالوسائل المختلفة، وبشئ الأشكال، عقائدية فكرية، واجتماعية اقتصادية، وبشرية مادية، ولم يكن الاستعمار الفرنسي إلا ذلك الاستخراب الذي سعى بكل تقنياته إلى تخريب الدار الجزائرية، وتهديم دعائهما والقضاء على مقومات بقائها من لغة ودين وتاريخ ووجود مادي". (3)

تعتبر الثورة إحدى المفاهيم الخاصة التي تفرقت بشأنها الأفكار وتناثرت، والسبب يعود إلى الفهم الحضاري السليم الذي غاب عن الأنظار، أو مورس في شأنه الغياب، والذي نسأل بشأنه الآتي: ما هي الثورة؟ ما معناها؟ ما حدودها؟ ما أهميتها؟ يجيب مالك بن نبي عن بعض هذه الأسئلة بقوله: "الثورة لا ترتجل، إنها اطراد طويل يحتوي ما قبل الثورة، والثورة نفسها وما بعدها، والمراحل الثلاث هذه لا تجتمع فيه بمجرد إضافة زمنية بل تمثل فيه عضويا، وتطورا تاريخيا مستمرا وإذا حدث أي خلل في هذا النمو، وفي هذا التطور، فقد تكون النتيجة زهيدة تخيب الآمال". (4)

فالثورة بهذا المعنى "استعداد حضاري عام وشامل، يقوم به الإنسان لإنجاز المهام الكبرى التي تؤهله للسيادة والإستخلاف، والثورة بهذا المعنى لا تبنى على العبث ولا يحكمها قانون الصدفة بل هي نتيجة حتمية لسنن التغيير التي أودعها الله عباده، والتي إن ساروا وفقها بلغوا مرحلة الثورة التي تؤول بهم إلى زمن النصر الدائم". (5)

إن هذه السنن "تجد لها مثلا في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم" الذي لم يبلغ غزوة بدر حتى فقه قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الْمُدُنُّرُّ قُمْ فَأَنْذِرْ»، (6) وقوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الْمُرْمُلُ قُمْ اللَّيْلَ»، (7) والثورة بهذا المعنى حركة تغيير شاملة يقوم بها الإنسان لإثبات الذات، وعلى هذا يضاف شرط آخر وهو روح الثورة وفلسفتها، فالثورة ليست كإحدى الحروب تدور رحاها مع العدد والعتاد، بل إنها تعتمد على الروح والعقيدة". (8) وقد كانت الثورة الجزائرية "كذلك - أو هكذا فهمها من ضحوا من أجلها على الأقل- يقول أحمد طالب الإبراهيمي، "الثورة الجزائرية لم تنبثق عن صراع بين طبقات المجتمع الواحد، بل كانت نتيجة للكفاح الذي خاضه الشعب بأسره ضد الاحتلال الأجنبي من أجل

استعادة شخصيته ولغته وتاريخه وثقافته، وباختصار من أجل إثبات شخصيته الأصيلة التي طابها حاربها الاستعمار".⁽⁹⁾ وبالتالي فالثورة فعل إنساني، هدفه التغيير الشامل، والتطهير الكلي، إنها الزلزال الذي يقلب ملامح الأرض، ويهز الأعماق، ويغير الخرائط، ويبدل المجتمعات والأفكار.

بعد مجزرة الثامن ماي 1945 "التي ذهب ضحيتها أكثر من أربعين ألف جزائري، حين كان الحلفاء يحتفلون بانتصارهم، اكتسب الشعب الجزائري تجربة جديدة نبهته إلى الحقيقة المرة وهي أنه لا أمل في التحرر من غير سلاح، وهذه المجزرة وإن خلفت جراحا وآلاما كثيرة، جعلت الشعب ييأس من المحاولة السلبية ويكتشف نفسه التي كانت تائهة في ضباب السنين".⁽¹⁰⁾ ويفضل تلك المأساة "ظهرت في أفق الجزائر ألمان الحرية والضحايا والإستقلال، والعلم الرفراف، إلى آخر هذه الرموز المقدسة لدى الشعب، التي لم تظهر لولا التطور الكفاحي الذي كان يدنو من الهدف".⁽¹¹⁾

وهكذا كانت "أحداث ماي أو المجزرة الأربعينية التي ارتكبتها الاحتلال في حق شعب لا يملك إلا سلاح الإرادة والعزيمة ولا يقاوم إلا ببقية من إيمان السنين الطوال، الذي أصبح فيما بعد رصاصا قاتلا".⁽¹²⁾

كانت هذه الأحداث "البوتقة التي انصهرت فيها كل الجهود السياسية والإصلاحية لتولد بعد عقد من الزمن "جبهة التحرير الوطني، وكان جريان الأحداث وتحولات الواقع السريعة بعد "ماي" حافزا قويا على دفع عجلة الثورة التي يتبناها الشعر في دعوته إليها صراحة، وتأتي ثورة نوفمبر امتدادا لمقاومة السنين الطوال، وثمره لجهود الحركات الإصلاحية والأحزاب السياسية، وتكون آخر فصل من فصول مسرحية الصمود".⁽¹³⁾

اندلعت الثورة التحريرية في الفاتح من نوفمبر 1954، بعدما باءت كل المحاولات بالفشل، ويؤس الجزائريون من نيل مطالبهم في الحرية والاستقلال، فمنذ عهد الأمير عبد القادر وجذوة المقاومة مشتتة ولم تنطفئ وبقية صامدة ومستمرة، وإن حدث تغيير في شكلها وأساليبها، حسب ما تقتضيه الظروف ومتطلبات الحياة، وفرنسا لم تدخر جهدا ولا وسيلة في حربها ضد الجزائر، فمارست كل أشكال التعذيب والتشريد، وكل أنواع القوة والقهر والظلم والوحشية والاضطهاد، وهي لم تكتف بهذا بل ضربت الجزائر في الصميم في هويتها ومقوماتها أيضا.

والاحتلال الفرنسي لم يكن احتلالا عسكريا فحسب، بل كان غزوا ثقافيا أيضا، وبالتالي إحكام السيطرة على الجزائر عسكريا وثقافيا والتمكن من الاستيطان والاستقرار بها، وتحويلها إلى قطعة فرنسية في شمال إفريقيا.

أدرك المستعمر الفرنسي أن الثقافة هي "سر بقاء الشعوب، وأنها اسمنت الوحدة التي هي أساس القوة، وبدون قوة لا وجود للبناء والتشييد، ولا ازدهار للفكر والإبداع، وكان الاستعمار بجميع

أنواعه ومنذ القديم يعرف ذلك، وعليه فإنه كان دائما يواجه ضرباته الأولى إلى الكيان الثقافي عن طريق الإعدام المادي أو بواسطة الغزو الروحي والأدبي، بعد ذلك يركز على السيطرة السياسية والإقتصادية". (14)

لقد "وجهت ضرباتها الأولى لمصادر الثقافة الوطنية، فاستولت على معظم المساجد ثم هدمت بعضها وحولت الباقي إلى كنائس أو مصالح إدارية أو مراكز صحية، وضايقت المعلمين والمتعلمين في مرحلة أولى، ثم راحت تطاردهم وتنفيهم من الوطن في مرحلة ثانية، وأطلقت العنان للمبشرين على مختلف أنواعهم يقومون بعمليات المسخ والتشويه ضد العناصر المكونة لشخصيتنا العربية الإسلامية، بعد كل ذلك فقط وجدت السيطرة طريقها إلى المجالات الحيوية المختلفة". (15)

وعليه فإن فترة الاستعمار وما يميزها من "استبداد واستغلال إنما كانت فترة صراع ثقافي بالدرجة الأولى، لأن المعمر كان يعرف بأن شل الذهنية الجزائرية ومسح الإنسان بعد سلخه من الشخصية الوطنية هما اللذان سيسمحان بمواصلة ممارسة السيطرة في سائر الميادين وعلى مختلف الأصعدة". (16)

الصراع الذي دار بين الشعب الجزائري وبين المستعمر الفرنسي كان "محوره قضيتي الهوية" و"الانتماء" إذ تركزت جهود فرنسا محاولة فصل الجزائر عن الأمة العربية حتى لا تنتمي لهذه الأمة، بل وإدماجها في أمة أخرى، كذلك فإن المقاومة الجزائرية في المقابل ركزت اهتمامها على إبراز الشخصية الوطنية وتحقيق الاستقلال وهذا هو مفهوم "الهوية" ثم الارتباط بالوطن العربي، وهذا هو "الانتماء". (17)

وإذا كان "عنصر الهوية يرتبط بالواقع الوطني ونضاله وتاريخه، فإن العنصر الثاني يرتبط بالتاريخ العربي الإسلامي، وإثبات هذين العنصرين هو نفي لما عداهما من أصدقاء، سواء كان ارتباطا أو إدماجا أو انتماء، أو فرنسة أو احتلالا، وبكلمة واحدة: تحقيق هذين العنصرين هو تحقيق الحرية والعروبة للشعب الجزائري". (18)

ومن أجل الحفاظ على هذه الهوية العربية الإسلامية، وهذا الانتماء الحضاري العربي الإسلامي تنوعت أساليب الثورة وأشكالها، فلم يعد السلاح والرصاص وحده هو السبيل الوحيد في الخلاص من هذا الاستعمار البغيض، فقد أتيح الدور أيضا للكلمة التي كانت أشد قوة وأكثر تأثيرا. والواقع أن الأدب بنثره وشعره أحد أهم وسائل الثورة، وأكثرها فعالية، ما دام يلتقي معها في الغاية، وإذا كان هدفه تغيير الحياة، فإن أية ثورة لا تقوم إلا لذات السبب، وإن اختلفت الوسائل وتباينت الأساليب.

وقد لعب الأدباء والشعراء خاصة دور الجندي المجهول في كل ثورة نشبت على الأرض، فكانوا الممهدين لها، والداعين إليها، والمسجلين لكل أحداثها ووقائعها. ولما اندلعت الثورة التحريرية

في ليلة أول نوفمبر 1954، شارك فيها "الشعب الجزائري رجالا ونساء وشباناً، وذلك في الحواضر والقنابل، كانوا دوماً بجانب مواطنيهم يقاسمونهم محنهم ويواسونهم ويضمّدون جروحهم بالكلمة المشجعة المعسولة".⁽¹⁹⁾

وقد كانت "دواوين شعراء تلك الآونة حافلة بما قاساه الشعب من مآسٍ من طرف العدو العشوم، فهي مرآة صادقة لتطور أوضاع المقاومة، فلم يقع حادث خطير إلاّ وسجلوه في شعرهم وأذاعوه بواسطة الجريدة أو المذياع، فجميع الانتصارات التي كان المجاهدون يحصلون عليها وجميع الفظائع التي كان العدو يرتكبها إلاّ وعرفها العالم بأسره، أبناء حركة من ناحية ضمير من التزاموا الحياض فيما يتعلق بالمشكل الجزائري، فأعادوا النظر في موقفهم منه، وأيقظت من ناحية ثانية، الشعوب المظلومة وأثارت فيها كوامن الرفض والرغبة في التحرر وكسب الكرامة".⁽²⁰⁾

إذا كانت "مقدرة الفنان وإمكانيات الخلق هي التي تعطي العمل الفني درجة تميزه وتفوقه، فإن الخيال وإن كان جزءاً أساسياً من عناصر العمل الأدبي، إلاّ أنه لا يستطيع وحده أن يخلق شخصيات نمطية يتجسد فيها ما يضطرب في مرحلة تاريخية محددة من الأحداث التي تزلزل الضمير الإنساني".⁽²¹⁾

ومن هنا "كانت ثورة الشعب الجزائري نتوجها للألام التي كابدها الشعب الجزائري، بحيث أصبح أدباء الجزائر جزءاً رئيسياً من جهة القتال، وأصبح الموضوع الذي تدور حوله جميع أعمالهم هو حرب التحرير ومقاومة المستعمر، رفضاً للإستغلال والتسلط، وقد أدرك العدو نفسه ذلك، فراح يتفنن في استكشاف فنون التعذيب والتكليل وإبداع الوسائل التي تكفل له في نظره على الأقل القضاء على المقومات الشخصية والتاريخية التي بدونها يستحيل الصمود".⁽²²⁾

والشعر أكثر أشكال الأدب طواعية ومرونة، وأقدرها على التعبير عن مكونات النفس من جهة، وعن احتواء الثورات من جهة أخرى. فالشعر "هو الذي حمل رسالة الثورة قبل أن تظهر القصة والرواية في الأدب الجزائري، وأن الشعراء هم الذين أشعلوا نارها، وكانوا لسانها الصادق الذي بلغها أحسن تبليغ إلى الجماهير الثائرة بعد أن انفعلوا بها وتجاوبوا معها".⁽²³⁾

إن الشعر "نشاط إنساني ممتاز معقد، والإنسان كائن يعاني حركية الوجود، ويعيش الأمر الواقع، ويواجه التحدي الدائم، ويضطرب في إطار نظام كوني شامل، فالشعر لسان هذا الإنسان الصادق الذي يترجم نبضات قلبه بحروف متوهجة مدادها يسري في عروق الحياة، والشعر رؤياً جمالية في قالب فني، والثورة فعل واع له قوانينه الخاصة به".⁽²⁴⁾ فالشعر هو الذي "يجمع حروف الأبجدية

الضائعة المشتتة، فينظمها في قالب سحري، تؤدي به معنى مشحونا مؤثرا ينتج عنه فعل ثوري، والثورة هي مادة الاحتراق التي تجعل الكتابة الشعرية أكثر تنهايا". (25)

وبالتالي فإن الشعر يكتب الثورة، ويشعلها كما أنّ الثورة تفتح مجال الإبداع والخلق للشاعر، فهي التي تصنع له الأفكار، وتخلق له الرؤى، فالعلاقة بينهما وطيدة وعميقة، ذلك أن الشاعر إنسان يعيش واقع مجتمعه وآفقه، بل هو كتلة أحاسيس وموهبة تؤهله لأن يكون أكثر انفعالا من الإنسان العادي، مع ما يطرأ من أحداث ومستجدات كان ولا يزال "أدب الحروب والمعارك سجلا لما يجري فيها من دمار إنساني، وما يسجل فيها من بطولات وتضحيات، منذ أن بدأ الصراع بين القبائل والشعوب، والشعراء هم ضمير الأمة الحي ولسان حالها يعبرون عن آلامها وانتكاساتها وانتصاراتها، ومن هنا نرى أن فن الشعر هو أكثر الفنون تسجيلا للحرب والسلام، بل ولعل الشعر ظهر أول ما ظهر الصراع والحروب بين الإنسان وأخيه الإنسان وفي أحيان كان الشاعر هو المحرض على اشتعالها، نافخا انفجالاته من حب وكره، ورأفة وقسوة في طرفي الصراع". (26) "ولنا في التراث الشعري العربي والإنساني الحجة والبرهان، ماذا كنا سنعرف عن حروب طروادة لولا هذه الملاحم الشعرية، وماذا كنا سنعرف أيضا عن حروب البسوس، وداحس والغبراء، والمناوشات بين قبيلتي عيس وذبيان، لولا ديوان الشعر العربي القديم". (27)

والعلاقة بين الشعر والحياة "علاقة جدلية، علاقة أثر وتأثير، فالشاعر إن لم يحرض على قيام الثورة وقد يفعل من خلال تعبئة الشعوب المقهورة على رد القهر، فإنه يأخذ منها مادته فتخلد أحداثها ومآسيها بخلود الشعر". (28)

والشاعر الجزائري لم يشذ عن هذه القاعدة، فهو شاعر ومواطن جزائري في الوقت نفسه، يؤثر ويتأثر والثورة الجزائرية حدث تاريخي عظيم، وأهم موضوع ألهم الشعراء وفتق مواهبهم، وأطلق أسنتهم، فكانت منهلا نهل منه معظم الشعراء، تسجيلا لأحداثها، وتخليدا لبطولاتها وانتصاراتها.

وقد رافق الشعر الثورة التحريرية منذ انطلاقها الأولى، حيث "صور شعراء الثورة وحشية الجيش الفرنسي، وأعماله الوحشية، فقد قتل الأطفال، واعتدى على حرمة النسوة، وأعدم، وشنق الكبار، وملاً السجون بالمناضلين، وأباد قرى، وأحرق المزارع والديار، ورغم كل هذا فإن الشعب الجزائري آمن بحتمية انكسار الوحش الظالم". (29)

وكان الشعر "متجاوبا إلا أبعد التجاوب مع الثورة، فقد التزم التزاما كاملا للتعبير عن عمقها ووقف مدافعا عن الأرض والإنسان، وكان في ذلك صادقا أشد الصدق، إذ حين اشتعلت الثورة، أذكت العواطف، وهزت المشاعر الأعلام، التي كانت من قبل مكبوتة وفتحت أمام الشعراء آفاقا ما كان يستطيع أن يحلم بها لولا الدم، النار والنضال، وقد تفجرت نتيجة لذلك عواطف الشعراء بشعر

ثوري عارم، يسجل انتصارات الثورة، ويبشر المحزونين والمتألمين، ويضمّد الجراح، ويخمد الدموع، ويخلد الشهداء، والأبطال، والوقائع". (30)

إن علاقة الشعراء الجزائريين بالثورة التحريرية الكبرى هي علاقة الروح بالجسد، فقد كانوا هم المصدر الذي استلهم منه الشعب الجزائري المدد المعنوي الذي تسلح به في جهاده المرير الذي أعلن عنه في نوفمبر 54، وإليهم يرجع الفضل في توعية الشعب، وتمسكه بشخصيته وحفظ كيانه. ومن هؤلاء الشعراء الشاعر "محمد العيد آل خليفة الذي كان له موقف واضح من الاستعمار ومن الثورة، فقد تنبأ بحدوثها بوقت قريب، كما تنبأ بإشراق فجر الثورة من "الأوراس"، فبيعت تنبأته شعرا للشعب الجزائري، في قصيدته "رعد البشائر" التي ألقاها بباتنة على إثر الدروس التي قام بها البشير الإبراهيمي يقول فيها:

فأطرب أوراسا بها والشالعا
فجادات وعادات للمبررات مرتعا
كما أخصب الروض الجديد وأينعا
أعدت لإرواء المدارك منبععا (31)

بباتنة رعد البشائر لعلعا
وجادات غيوث البر كل رحابها
وأخصبت الآمال فيها وأينعت
بمدرسة دينية عربية

ويقول أيضا:

ليقتبس العلم الصحيح فينفعنا
ليفتح مصرا أو يلاقي مصرعا
لجارك هما بالسيادة مولعا (32)

وما الحر إلا من تيمم معهدا
والإ من اختاض الوغى في كتيبة
فيا أيها الشعب الذليل أما ترى

فالشاعر يقدم مفهومه للإنسان الحر، فهو الذي يتيمم معهدا لاقتباس العلم النافع، وهو الذي يخوض ساحات الوغى في كتيبة ليحرر البلاد أو يلقي الشهادة، وهذا هو الطريق الذي ينبغي على الشعب الجزائري أن يسلكه.

يوصل الشاعر في شذذ الهمم، والدعوة إلى الثورة ضد المستعمر الدخيل، فيقول في قصيدته "يا قوم هبوا":

فالعمر ساعات تمر عجالا
فكوا القيود وحطموا الأغلال
حريّة تحميّه واستقلالاً (33)

يا قوم هبوا لاغتنام حياتكم
الأسر طال بكم فطال عناؤكم
والشعب ضج من المظالم فانشدوا

فالشاعر يدعو الشعب الجزائري إلى الثورة في وجه المستعمر الفرنسي فقد ضاق ذرعا به وبظلمه، لذلك لا بد من تحطيم القيود والأغلال، لتحقيق الحرية والاستقلال ونيل المراد، ولا يكون ذلك إلا بالثورة والتوكل على الله سبحانه وتعالى.

لقد طغى على شعر محمد العيد آل خليفة الوعي الوطني والحس الثوري، وانطلق من أرض الوطن بحب الجزائر، ويوقظ الهمم، ويثير الحماس، مترنما بمعاني الجهاد، والثورة والحرية، والوطن...، ومشيدا بدور جيش التحرير وجنوده الأشاوس، يقول:

نحن جيش التحرير جند النضال نحن أسد الفدى نمور النزال
دمدم الطبل للنفير فثرنا وهزنا البلاد كالزئال
واتخذنا من الجبال قلاعاً نقرع السمع بالصدى كالجبال⁽³⁴⁾

لقد كان شعر محمد العيد آل خليفة شعر مقاومة وثورة، من أجل تحطيم قيود الاستعمار، فبعث في الشعب، روح الوطنية والمقاومة من أجل اقتلاع جذور الظلم والطغيان، وتطهير الأرض من هذا المستعمر الذي خيم ليله على الجزائر فكان شعره صدى لهذه المشاعر والأحاسيس وترجمة لها، ويظهر ذلك من خلال إخلاصه لوطنه ولأصالته العربية الإسلامية «فهو كمعظم إخوانه من الجزائريين يعيش حياة لم يكن يحياها ملكا لنفسه، وإنما كان يحياها جنديا إلى جانب أمته في صراعها مع المعتدين الغاصبين».⁽³⁵⁾

إن الثورة التحريرية فتحت صفحات جديدة في الشعر الجزائري كما ولدت معها أسماء شعرية لشعراء كثيرين عاشوا الثورة وعاشوها وكتبوا عنها، مما جعل شعرهم سجلا دقيقا لأهم قضايا الثورة وحوادثها.

ومن هذه الأسماء، اسم لشاعر اقترن اسمه بالثورة، وإذا كنا بصدد الحديث عن الثورة التحريرية، فلا يمكن أن ننسى شاعرها مفدي زكريا، فكلما ذكرت الثورة ذكر معها اسم مفدي زكريا، فقد عاصرها وعاش أحداثها مناضلا في صفوفها وشاعرا لها، وهو الذي وهب حياته وشعره من أجل أن تحيا الجزائر حرة مستقلة، وأبدع شعرا ثوريا تغنى بالثورة وأمجادها، وخلد تاريخ الجزائر.

وإذا كانت "حرب طروادة باعثة لهوميروس على إنشاء "الإلياذة" والحروب العربية في الجاهلية الأولى موحية بتأليف ملحمة عنتر المشهورة، فإن تاريخ الجزائر الطويل الحافل بالأحداث والبطولات المشهورة، والروائع يصلح لأن يكون ملحمة شعرية من الطراز الأول...، هذه الإلياذة أو الألفية التي تخلد تاريخ الجزائر الحافل بالمقاومة المتصلة منذ قرون عدة، وبالبطولات الرائعة والأمجاد الباقية، والرجال العظماء".⁽³⁶⁾

والإلياذة أحسن سجل لتاريخ الجزائر حتى اليوم، أي أحسن كتاب فيه، وعنه، وله، وحتى إذا ما كتب هذا التاريخ يوما ما بصفة كاملة، شاملة، فستبقى إلياذة الجزائر، أروع تاريخ للجزائر وأكثره وقعا في النفوس، وأسهله على الحفظ والتذكر، والاستشهاد في معرض الاستشهاد والاحتجاج".⁽³⁷⁾

يقول صاحبها:

غنية غرابي طالبة دكتوراه

صدى الثورة التحريرية في الشعر الجزائري

وصور طينتها من نضال
وتمنع عنهم لذيذ الوصال
ل، لا ولا انطفأت ثورة في الجبال
ولا هدأت عاصفات الرمال⁽³⁸⁾

جزائر أبدها ذو الجلال
بلاد تمازح عشاقها
فما انكفأت ثورة في السهو
ولم يحن أوراس هامته

لقد كان الشعر حاضرا في "كل معركة، مدويا بصوته الرشاش، يلاحق الأحداث الصارخة، ويخلد البطولات الأسطورية، ويصور إرادة شعب استجاب له القدر، ويمثل شاشة تلفزيون، كما يقول مفدي زكريا الذي يعد ديوانه "الذهب المقدس" ديوان الثورة الجزائرية ونموذجا لثورة الشعر الذي لم يكن يعنى به الشعراء من ناحية الفن والصناعة".⁽³⁹⁾

وإنما كانت وظيفته كما يقول أيضا: "التعبئة الثورية، وتصوير وجه الجزائر الحقيقي بريشة من عروق قلبي، غمستها في جراحاته المطلولة".⁽⁴⁰⁾ فكان بحق لهيب ثورة الجزائر، ونارها المقدسة.

لقد رفض "مفدي زكريا" أسلوب الليونة والمهادنة مع العدو المحتل، ولا بد له من سلاح آخر، فحد السيف، والنار هو الذي يفى بالعرض ويخرس كل الألسنة، يقول:

السيف أصدق لهجة من أحرف
والنار أصدق حجة فاكذب بها
إن الصحائف، للصفائح أمرها
والحبر حرب والكلام كلام⁽⁴¹⁾

والى جانب السيف يرى "مفدي زكريا" أن الرشاش أيضا له دور كبير في الثورة، ويفي بالعرض، فلا يتردد أن يسبغ عليه العظمة والألوهية، ويسجد له سجدة شكر وتقدير وإجلال، وأتبعها بعبارات مدوية مجلجلة، تعبر عن الانفعال بالثورة والتحمس لها، يقول:

وتكلم الرشاش، جل جلاله
ونزلت آياته لهابة
والنار للألم المبرح بلسم
والنار في مس الجنون عزيمة
فاهتزت الدنيا وضج النير
لوحاة أصغى لها المستهتر
يكوى بها العظم الكسير فيجبر
يصلى بها المستعمر المتكبر⁽⁴²⁾

لقد دفعت الجزائر ضريبة غالية من الدم من أجل الخلاص من يرائن المستعمر الفرنسي، فجادت ولم تبخل بكل ما تملك، فقدمت القرابين في سبيل الحرية، وتدافعت قوافل الشهداء، وروت دماءهم الطاهرة كل شبر من هذه الأرض الطيبة، و"مفدي زكريا" كعادته لم يفوت الفرصة، فصح بما جادت به القريحة من شعر مصورا لتلك الملاحم التاريخية، ومشيدا بأولئك الشهداء وممجدا لهم، سواء الذين استشهدوا في ساحات الوغى، أو في سجون المستعمر الفرنسي، خاصة وأنه جرب حياة السجون والزنايات.

و"شاعرنا لم يكن حديثه عن الشهداء تصورا، وإنما رأى بأب عينيه كيف يؤخذ المصلح من جهة وبين الاستشهاد من أجلها من جهة ثانية، فهو وجها لوجه أمام الشهيد "أحمد زبانه" ساعة تنفيذ حكم الإعدام وذلك في القاعة التاسعة داخل سجن (بربروس) ليلة 18 جوان 1956".⁽⁴³⁾ ذلك هو "الذبيح الصاعد" الذي قال فيه:

قام يختال كالمسيح وييدا
شامخا أنفه جلالا وتيها
وامتطى مذبح البطولة مع
وتعالى مثل المؤذن يتلو
يتهادى نشوان يتلو النشيدا
رافعا رأسه يناجي الخلودا
- راجا، ووافى السماء يرجو المزيدا
كلمات الهدى ويدعو الرقودا⁽⁴⁴⁾

فالأبيات لا أثر فيها "للبياء والعويل على هذا البطل، وإنما نجد فيها التحدي الصارخ لقوى الظلم والطغيان، وتبدو فيها الموت طريقا إلى الحياة الكريمة، حياة يعطي فيها الشهداء دروسا في المقاصل، فغدوا مسارعين إلى ساحة الشرف بدافع الحب للوطن الذي يعز عليهم أن يروه يعيش منتهك الحرمات، منكس العلم في دنيا تشرق فيها شمس الحرية على دنيا العالمين، ولذلك أصبح زبانه شهيدا للثورة، وصار مفدي شاهدا عليها".⁽⁴⁵⁾

لقد كان "مفدي زكريا" شاعر الثورة التحريرية وحاديها، يغني لها ويتغنى بها، فأبدع شعرا ثوريا رافق كل أحداث الثورة، مصورا ومسجلا لكل أمجادها وبطولاتها، كما كان شعره خدمة وحباً لهذا الوطن المجيد، يقول:

حبست شعري وإلهامي على وطني
وهمت بالثورة الكبرى أساوقها
حلقت كالنسر في آفاق حاضرننا
فانساب ينشر في الدنيا معالينا
أهز في الثورة الكبرى رواسينا
وغصت كالسحر في أعماق ماضينا⁽⁴⁶⁾

هكذا عاش مفدي زكريا "لوطنه الذي أحبه، فخدمه بكل ما أوتي من قوة فكرية أو طاقة إبداعية، ودهاء سياسي، فقدم بذلك ما يعود على الثورة الجزائرية بما يفيدها في الهيئات العربية، ويزيد من أهميتها في المحافل الدولية".⁽⁴⁷⁾

لقد عانت الجزائر من ويلات الاستعمار الفرنسي، ولولا الثورة المباركة لظلت تحت رحمته وسلطته، إلا أن هناك الكثير من الشعراء الذين سخروا شعرهم للذود عن البلاد والعباد، وكان منهم أيضا الشاعر "أبو القاسم سعد الله" الذي وقف مدافعا عن الجزائر ومساندا لثورتها أينما حل أو ارتحل، يقول:

بحق الذائدين عن التراب
ومن رفعوا اللواء إلى السحاب

وحق الشعب منتفضا جموحا

يرود النصر في قمم الروابي

لقد بعث الجزائر من جديد

عمالقة على الصم الصلاب (48)

لقد كان وقع صدمة الاحتلال الفرنسي كبيرا على الشعب الجزائري، إلا أن ذلك لم يفقده توازنه وثباته فقد جمع قواه من جديد ووجد الصف وثار على جيوش المحتل، من خلال ثورة منظمة ومتماسكة..

ويعبر "سعد الله" عن معاناة الشعب الجزائري جراء جرائم المستعمر الفرنسي فيقول:

والشعب يسبح في الدموع

والبؤس يحتطب الجموع

والمبدأ الأسمى صريع

بين المخالب والنجيع

الثائرون على الطغاة يناضلون

والخائنون يقهقهون ويسخرون

ويرددون: الخارجون المجرمون

سيحاكمون ويعدمون

والشعب تقهره الضرائب والسجون (49)

يرى الشاعر أنه لابد من مواجهة هذا الاستعمار، ولا يكون ذلك إلا عن طريق الثورة، فراح يشق طريقه، داعيا لتحطيم القيود حيث يقول:

وصرخت في الجموع الذاهلات:

حطموا القيد وغنوا للحياة

وافتحوا نافذة الأفق الرحبية

واعشقوا النور حياوات خصيبة

بيد أني لم أجدهم في طريقي

يا رفيقي (50)

فالشاعر قد اختار طريقه، عن وعي وإدراك ومسؤولية، فمأساة وطنه ومعاناته تجعله يرفض أن يسير في طريق غير طريق الثورة.

على غرار باقي الشعراء الجزائريين فإن "سعد الله" قد تأثر بالثورة التحريرية وانفعل معها فكان شعره صدى لهذه الثورة، يبيت الحماس في نفوس الجزائريين، ويدعو إلى الثورة، ويدعمها، فهو يتعهد بمواصلة الدرب والكفاح والنضال حتى يتحقق النصر والاستقلال يقول:

بالبطولات بروح الشهداء

بالشعارات بآلاف الضحايا

سوف لا ألقى السلاح

سوف لا تبرح كفي بندقية

سوف لا يفرغ جيبني من رصاص

سوف لا يهدأ قلبي دون تأري

سأظل الشعلة الحمراء في وجه عدوي

سأظل الطعنة النجلاء في ظهر عدوي

باسم أهداف الكفاح

سوف لا ألقى السلاح⁽⁵¹⁾

إن الثورة الجزائرية "التي استطاعت أن تجعل من المستحيل ممكنا في تاريخ النضال العربي بل الإنساني، بتحديها لأقوى دولة استعمارية في ذلك الوقت بقوة صمودها وعظيم تضحياتها، قد تركت بالغ الأثر في نفوس الشعراء بما أثارت فيهم من مشاعر الاعتزاز والفخر ببطولات الثائر الجزائري أمام جحافل جنود الاستعمار المدجج بأعتى أسلحة الدمار".⁽⁵²⁾

كما كانت "درسا بليغا للدول الاستعمارية، فمهما كانت قوة المحتل الغاصب، ومهما طالمت مدة سيطرته على الشعوب فلا بد من يوم آت لا ريب فيه سيخرج فيه ذليلا مهزوما فما ضاع حق وراه طالب".⁽⁵³⁾

لقد كانت الثورة التحريرية أعظم ثورة عرفتها البشرية، دفعت خلالها الجزائر ثمنا غاليا تمثل في مليون ونصف المليون شهيد من أجل حريتها واستقلالها. كما كان الشعر حاضرا يسجل ويؤرخ، فكان الشاعر الجزائري لسان حال بلده، يدافع ويناضل بقلمه، وقد أغرت هذه الثورة الكثير من الشعراء الجزائريين بالولوج إلى عالمها، فتسابقت الأقلام لتسجيل ما جادت به القريحة من شعر ونظم فأبدعت ملاحم شعرية خلّدت تاريخ نضال الجزائر.

Abstract :

This study aims to highlight the relationship between poetry and the liberation revolution, its association with it, its contribution to the definition of it and its heroism. In addition to the extent of Algerian poets' contribution to the struggle and the call for

revolution through their struggle by word which is stronger than the language of bullets and weapons to confront this brutal colonizer.

What is the impact of this revolution on Algerian poetry?

What role did poetry play during the liberation revolution?

Did the Algerian poets achieve their goals in this revolution through the revolutionary poems they created?

The Algerian revolution is one of the most important historical events in the world. it showed the path of a people that suffered so much from the scourge of French colonialism, who fought him in various ways and means. Poetry, especially revolutionary poetry, had a leading role, no less important, he portrayed the painful reality of the Algerian people and its history with all sincerity and honesty. This revolutionary poetry was also the result of a blessed revolution fed by all that it needs, that Algeria used it as a weapon to destroy the colonialist's restrictions, and a means of changing the bitter reality.

This revolution had a clear impact on Algerian poetry. It sparked the enthusiasm of the poets to write about the struggle of the Algerian people, and the war he fought for freedom and independence. It has opened up a lot of space and changed their views to the reality, which led them to look for new, whether in form or content. New themes have emerged that speak of revolution and revolutionaries, fight against colonialism and aspire to independence.

Thus it is showed the great role played by Algerian poets in fueling the struggle, and to instill a spirit of vigilance and enthusiasm in the hearts of the Algerians to revolt against the colonizer and fight it, and to carry on the struggle for freedom and independence.

Therefore, Poetry is the one who carried the message of the revolution, and the poets are the ones who set fire to it, they were her true tongue which communicated it to all the world. The subject of the revolution is one of the most important topics that inspired poets and launched their tongues, It was a rich pot from which most Algerian poets took to record the events of the revolution and perpetuate their glories.

The Algerian poetry is a rich historical record that commemorates Algeria's history of struggle, and protect it from disappearing to next Algerians generations

الهوامش:

(1) - ابن منظور: لسان العرب. مادة (ثور). المجلد الرابع. دار صادر. بيروت. ص 108.

- (2) – إبراهيم رماني: أوراق في النقد الأدبي. ط1. دار الشهاب. الجزائر. 1985. ص: 34-35.
- (3) – المرجع نفسه: ص: 35.
- (4) – عمر بوقرورة: دراسات في الشعر الجزائري المعاصر. دار الهدى. الجزائر. 2004. ص: 75-76.
- (5) – المرجع نفسه. ص: 76.
- (6) – سورة المدثر: الآية: [1-2]
- (7) – سورة المزمل: الآية: [1-2]
- (8) – المرجع السابق. الصفحة نفسها
- (9) – المرجع نفسه. الصفحة نفسها.
- (10) – أبو القاسم سعد الله: دراسات في الأدب الجزائري. المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر. 1985. ص: 43.
- (11) – المرجع نفسه. الصفحة نفسها.
- (12) – إبراهيم رماني: أوراق في النقد الأدبي. ص: 55.
- (13) – المرجع نفسه. الصفحة نفسها.
- (14) – محمد العربي الزبيري: الغزو الثقافي في الجزائر 1962-1982. مجلة الرؤيا. العدد 02.. ص: 08.
- (15) – المرجع نفسه. ص: 09.
- (16) – المرجع نفسه. ص: 10.
- (17) – عبد الله ركيبي: الأوراس في الشعر العربي ودراسات أخرى. 1982. ص: 49.
- (18) – المرجع نفسه. الصفحة نفسها.
- (19) – محمد الطمار: مع شعراء المدرسة الحرة بالجزائر. ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر. 2005. ص: 24.
- (20) – المرجع نفسه. الصفحة نفسها.
- (21) – عبد العزيز شرف: المقاومة في الأدب الجزائري المعاصر. ط1. دار الجيل. بيروت. 1991. ص: 63.
- (22) – المرجع نفسه. الصفحة نفسها.
- (23) – إبراهيم رماني: أوراق في النقد الأدبي. ص: 33.
- (24) – المرجع نفسه. ص: 41-42.
- (25) – المرجع نفسه. ص: 45.
- (26) – أحسن مزور: الثورة الجزائرية في الشعر المصري الحديث. ط1. مكتبة الآداب. القاهرة. 2005. ص: 71.
- (27) – المرجع نفسه. الصفحة نفسها.
- (28) – المرجع نفسه. الصفحة نفسها.
- (29) – شريط أحمد شريط: دراسات ومقالات في الأدب الجزائري الحديث.. ص: 97.
- (30) – المرجع نفسه. ص: 98.
- (31) – محمد العيد آل خليفة: الديوان. موفم للنشر. الجزائر. 2010. ص: 185.
- (32) – المصدر نفسه. ص: 187.
- (33) – المصدر نفسه. ص: 339-340.
- (34) – المصدر نفسه. ص: 427.
- (35) – محمد بن سميحة: محمد العيد آل خليفة دراسة تحليلية لحياته. ديوان المطبوعات الجزائرية. ص: 137.

- (36) – إبراهيم رماني: أوراق في النقد الأدبي. ص: 74-75.
- (37) – مفدي زكريا: إلياذة الجزائر. المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر. 1987. ص: 13.
- (38) – المصدر نفسه. ص: 60.
- (39) – إبراهيم رماني: أوراق في النقد الأدبي. ص: 57.
- (40) – مفدي زكريا: اللهب المقدس. المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية. الجزائر. 2007. ص: 07.
- (41) – المصدر نفسه. ص: 41-42.
- (42) – المصدر نفسه. ص: 116.
- (43) – أحمد دوغان: في الأدب الجزائري الحديث. مطبعة اتحاد الكتاب العرب. دمشق. 1996. ص: 303.
- (44) – مفدي زكريا: اللهب المقدس. ص: 17-18-19.
- (45) – حواس بري: شعر مفدي زكريا دراسة وتقويم. ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر. ص: 90.
- (46) – مفدي زكريا: اللهب المقدس. ص: 196-197.
- (47) – حواس بري: شعر مفدي زكريا دراسة وتقويم. ص: 45.
- (48) – أبو القاسم سعد الله: الزمن الأخضر. ط2. دار الغرب الإسلامي. الجزائر. 2005. ص: 207.
- (49) – المصدر نفسه. ص: 119-120.
- (50) – المصدر نفسه. ص: 140.
- (51) – المصدر نفسه. ص: 283.
- (52) – أحسن مزور: الثورة الجزائرية في الشعر المصري الحديث. ص: 41.
- (53) – المرجع نفسه. ص: 105.